

النّاس..



.. قدّر أنّ تطوى سرائر الخلق في هذا العالم, ولا شكّ أنّ في تقديره لطفاً, وفي لطفه
جلّ وعلا حكمة وتقديراً. تصوّروا معي أنّ لو هُيئ للإنسان أن ينفذ إلى دخيلة النّاس, ويخبر
ما انطوت عليه ذوات أنفسهم من الأفكار والأسرار, إذاً لعرف عندها العجّاب العجّاب,
وابيَصّ فؤودهم في غرّة الشباب! النّاس, وما أدراك ما النّاس! بحرّ لجّيّ الطباع,
جبلّة من التنوّع والتناقض, متاهة معقّدة يستحيل الخروج من أنفاقها, أُحجية ينوء
اللبيب بحلّها. ألزمتني الحياة مخالطة النّاس بحكم النّوع والضرورة, وقضت الّلابديّة
بزجّ وجهي بين الوجوه, ونفسي بين النّفوس, علّني أنظر في مرآة نفسي شكل وجهي, أو أضع
بين ضباب الأنفس وأقنعة الوجوه!.. في دورة المعرفة وجلاء الذّات عانيت وعورة التّجارب,
نجحت قليلاً وفشلت كثيراً, تأبّطت الصخور المقدّعة بالعشب لكنّ قدمي انزلت بقوّة
التيار, وألفيتني في اليمّ مبتلاً بالخل. تعذّرت بالمشتريات طنّاً بأنّ أنا حَمّالة
الرّغبات, ومضيت في أكثر الأحيان واحداً من النّاس, عدداً من الأعداد!.. في كتاب الحقيقة
قرأت أنا, وبالكتاب عينه أقرأ النّاس!.. أسير في زمن التلوّن فأجد فلاناً يعبد

مياومة, وبعد الدّوام أو قبله ينحني لعبادة الأصنام !. أجول في الشوارع فأرى تقوى
الوجوه, ولا أتحدّس تقوى القلوب, أطرب لذكر الله يتعالى بقامات المآذن, وأحنّ إلى تعظيمه
سلوكاً وامثالاً. أرى النّاس يتجمّعون الزهادة والعبادة, وعلى أعتاب بيوتهم ومعاييدهم
يتضوّع الفقراء جوعاً ويتجرّعون بؤساً.. أسمع تمجيد الحرية على ألسنتهم, وأرقبهم
عبيداً على أبواب سادتهم يتوسّلون حقوقهم, ويستجدون أرزاقهم, ويسبّحون بحمد طّلامهم ..
أسمع رنين ضحكاتهم, فأخبرها تهكّماً بالضعفاء, وازدراءً بذوي النّقص والعاهات, أو
تقمّص كبرياء.. أخشع لأنين دموعهم منتظراً رياح الفعل تهبّ من رحم المعاناة, فلا أرى
الحنن إلا كـرّة المأساة.. أنشد البرّ والإحسان فيهم, أسفاً فالبرّ دونه ماء الكرامة
عندهم, والإحسان مُثمن والأعرّاض أثمان!.. أطلب المّدق في نادي التّقاة, فإذا الكذب ملح
الرجال تفاخرا, ومنجاة من سطوة الحقّ الزلال. تصم أذنيّ عبارات التملّق والتصدّع
والتّجمّل, وليتها لم تخفي خلفها المكيدة والوقية والمداراة, وأقول أشيح عنها وأستطلّ
من لهبها فَيء البيوت علّ الروح تصطلي دفاء الحقيقة . وحين دخلت إحداها استقبلني ملاك
الوحي بالمعوذتين والإخلاص, وأشرقت بوجهي آية الكرسي, وتبسّمت روحي لأسماء الأئمة
والصالحين, فخلتُ نفسي في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه, إلّا أنّه خاب ظنّي بعد
هنيهة, حين انفلتت الألسن من عقالها كالسّباع الجارحة فلم تترك حرمة إلّا انتهكتها, أو
سُمعة إلّا شوّهتها, أو مستورة إلّا أعلنتها, كلّ ذلك في حضرة الآيات والنّذر . ضقت بهذا
النفاق هارباً إلى حيث يسمّيني النّاس معتزلاً, وما أروع العزلة إن كان بها جلاء البصيرة,
وتهذيب الرّوح, وترويض النّفوس, واكتساب الأنسنة!..